الفرار من الفتن

(شرح حديث يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال)

مقتبس من فتح الباري لابن رجب

-رحمه الله-

وبذيله أكثر من ٥٠ فائدة تتعلق بالفتن بجميع أنواعها من جميع كتبه -رحمه الله-

انتقاء

عبد الله بن سعيد أبو حاوي القحطاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَفَرِّدِ بِالْقُدْرَةِ، وَالْمُتَعَزِّزِ بِالْعَظَمَةِ، أَحْمَدُهُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالْعَافِيَةِ وَالْبَلَاءِ، حَمْدًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ وَمُسْتَحِقُّهُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ رُسُلِهِ وَخِيرَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ، وَعَلَى أَهْلِهِ أَجْمَعِينَ وَسَلَّمَ وَشَرَّفَ وَكَرَّمَ.

أَمَّا بَعْدُ:

مَعْشَرَ إِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ عَلَى النِّعَمِ شَاكِرِينَ، وَعِنْدَ الْبَلْوَى وَالْمِحَنِ صَابِرِينَ، فَقَدْ ظَهَرَ فِي وَقْتِنَا وَفَشَا فِي زَمَانِنَا مِنَ الْفِتَنِ وَتَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ وَفَسَادِ الدِّينِ، وَاخْتِلَافِ الْقُلُوبِ وَإِحْيَاءِ الْبِدَعِ وَإِمَاتَةِ السُّنَنِ، مَا دَلَّ عَلَى انْقِرَاضِ الدُّنْيَا وَزَوَالِهَا، وَمَجِيءِ السَّاعَةِ وَاقْتِرَابِهَا، إِذْ كُلُّ مَا قَدْ تَوَاتَرَ مِنْ ذَلِكَ وَتَتَابَعَ وَانْتَشَرَ، وَفَشَا وَظَهَرَ، قَدْ أَعْلَمَنَا بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ وَخَوَّفَنَاهُ وَسَمِعَهُ مِنْهُ صَحَابَتُهُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَأَدَّاهُ عَنْهُمُ التَّابِعُونَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَنَقَلَهُ أَئِمَّتُنَا إِلَيْنَا عَنْ أَسْلَافِهِمْ، وَرَوُوهُ لَنَا عَنْ أَوَّلِيهِمْ. (١)

وقد كان من ورثة هؤلاء الأعلام، وأئمة السلف الكرام في العلم والمعرفة بشرائع الإسلام، وعمق فهم للدلائل والأحكام ، الحافظ العالم عبدالرحمن بن رجب الحنبلي– رحمه الله– وجزاه عن الإسلام وأهله خيرا، وقد رأيت وقرأت كغيري ما في كلامه وفوائده وإشاراته واستنباطاته كشيخه ابن القيم من جواهر الدرر، ومعرفة تامة بالحديث والأثر. كان من جملتها كلامه عن الفتن وما يتعلق بها وتغير الزمن، وسواء كان شرحا لعدة أحاديث في هذا الباب وهو الأكثر، أو كان تعليقا على آيات معدودات، أو غيرها مما تكلم به استطرادا وكان فيه أعظم الفائدة!!

(١) مقدمة السنن الوارد في الفتن لأبي عمرو الداني (١-٢)

ولقد كان شرحه لحديث «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال..**» الحديث. من أنفس التعاليق وأكثرها، وذلك في كتابه الفذ "فتح الباري" فطرأت فكرة أن يُفرد بالإخراج لأهميته في وقتنا المستطير المستثير بالفتن والشرور ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الغفور ، ثم ضممتُ إليه وحتى تكتمل الفائدة ما أشار إليه واستنبطه وهو الأكثر، أو نقله عن غيره في هذا الموضوع بالأخص لنفاسته وكثرة فوائده!!

ولعل في مثل هذا الانتقاء على هذه الصورة نفعا كبيرا إن شاءالله تعالى، ومن ثَمّ يدرك المسلم أهمية ما ذكره رحمه الله، ويعرف كيف يتعامل مع الفتن من خلال الاطلاع على الأحاديث والآثار، وكلام أهل العلم الأبرار، جنبنا الله ما ظهر من هذه الفتن وما بطن.

وحتى يتبين للعاقل أيضا ما حل بنا في هذه الأزمان من تتابع الفتن المخيفة وانتشارها وخطورتها، ويخاف أن يذهب معها دينه أو يضعُف إيمانه، فيُعمل نفسه في إصلاح شأنه، ويُقبل على ربه، ويسأله حسن الختام والموت على السنة والإسلام، وما توفيقنا إلا بالله عليه نتوكل وهو حسبنا، وإليه ننيب ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم.

فصل

قال البخاري -رحمه الله-:

باب: من الدين الفرار من الفتن.

حدثنا عبد الله بن مسلمة، عن مالك، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: **«يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»**.

بوب البخاري على أن الفرار من الفتن من الدين؛ وليس في الحديث إلا الإشعار بفضل من يفر بدينه من الفتن؛ لكن لما جعل الغنم خير مال المسلم في هذه الحال دل على أن هذا الفعل من خصال الإسلام، والإسلام هو الدين. وأصرح من دلالة هذا الحديث الذي خرجه في أول الجهاد [١] من رواية الزهري، عن عطاء بن يزيد، عن أبي سعيد قال: قيل: يا رسول الله! أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: **«مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله»** قالوا: ثم من؟ قال: **«مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره»**.

وليس في هذا الحديث ذكر الفتن. وخرَّجه أبو داود [٢]، وعنده: سئل النبي ﷺ: أي المؤمنين أكمل إيمانًا؟ فذكره.

وهذا فيه دلالة على أن الاعتزال عن الشر من الإيمان.

وفي (المسند) [٣] و(جامع الترمذي) [٤]، عن طاووس، عن أم مالك البهزية قالت: قال رسول الله: **«خير الناس في الفتنة: رجل معتزل في ماله، يعبد ربه ويؤدي حقه، ورجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله»**.

وروي عن طاووس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ. [٥]

---

(١) (٢٧٨٦)

(٢) (٢٤٨٥)

(٣) (٤١٩/٦)

(٤) (٢١٧٧)

(٥) خرجه الحاكم. (٤٤٦/٤-٤٦٤)

وروي عن طاووس مرسلًا.

وخرَّج الحاكم أيضًا [1] من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**أظلتكم فتن كقطع الليل المظلم أنجى الناس منها: صاحب شاهقة يأكل من رِسلٍ غنمها، ورجل من وراء الدروب بعنان فرسه يأكل من فيء سيفه**» وقد وقفه بعضهم.

فهذه الروايات المقيدة بالفتن تقضي على الروايات المطلقة.

وحديث أبي سعيد الذي خرجه البخاري هنا لم يخرجه مسلم.

وقد روي عن مالك، عن زيد بن أسلم، عن عبد الرحمن، عن أبي سعيد؛ وهو وهم.

وروي عن يحيي بن سعيد، عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، عن نهار العبدي، عن أبي سعيد.

وذكر «**نهار**» في إسناده وهم. قاله الدارقطني. [2]

فقوله ﷺ «**يوشك**» تقريب منه للفتنة، وقد وقع ذلك في زمن عثمان كما أخبر به ﷺ وهذا من جملة أعلام نبوته ﷺ.

وإنما كان الغنم خير مال المسلم –حينئذ–؛ لأن المعتزل عن الناس بالغنم يأكل من لحومها ونتاجها ويشرب من ألبانها ويستمتع بأصوافها باللبس وغيره، وهي ترعى الكلأ في الجبال وترد المياه؛ وهذه المنافع والمرافق لا توجد في غير الغنم؛ ولهذا قال: «**يتبع بها شعف الجبال**» وهي رؤوسها وأعاليها؛ فإنها تعصم من لجأ إليها من عدو، و«**مواقع القطر**» لأنه يجد فيها الكلأ والماء فيشرب منها ويسقي غنمه وترعى غنمه من الكلأ.

وفي (مسند البزار) [3] عن مخوّل البهزي: سمع النبي ﷺ يقول: «**سيأتي على الناس زمان خير المال فيه غنم بين المسجدين تأكل من الشجر، وترد الماء، يأكل صاحبها من رِسلِها،**

---

(١) (٢/٩٣)

(٢) في علله (٤/ ق٢ –ب ٣ –أ)

(٣) لم أجده في كشف الأستار –وهو على شرطه– وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٣٠٥) لأبي يعلى؛ والطبراني في الأوسط، ولم يعزه للبزار، وهو عند أبي يعلى (٣/١٣٧)

ويشرب من ألبانها، ويلبس من أشعارها – أو قال–: من أصوافها، والفتن ترتكس بين جراثيم العرب» وروي هذا المعنى عن عبادة بن الصامت من قوله.

وواحد الجراثيم: جرثومة؛ وهي أصل الشيء.

وفي هذا دلالة على أن من خرج من الأمصار فإنه يخرج معه بزاد، وما يقتات منه.

وقوله: **«يفر بدينه من الفتن»** يعني: يهرب خشية على دينه من الوقوع في الفتن؛ فإن من خالط الفتن، وأهل القتال على الملك لم يسلم دينه من الإثم إما بقتل معصوم، أو أخذ مال معصوم، أو المساعدة على ذلك بقول ونحوه، وكذلك لو غلب على الناس من يدعوهم إلى الدخول في كفر أو معصية، حسن الفرار منه.

وقد مدح الله من فر بدينه خشية الفتنة عليه فقال –حكاية عن أصحاب الكهف– ﴿**وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ**﴾[الكهف:١٦].

وروى عروة، عن كرز الخزاعي، قال: سأل رسول الله ﷺ أعرابي: هل لهذا الإسلام من منتهى؟ قال: **«من يرد الله به خيرًا من عرب أو عجم أدخله عليه»** قال: ثم ماذا؟ قال: **«تقع فتن كالظلل»**. قال: كلا يا نبي الله، قال: **«بلى، والذي نفسي بيده لتَعُودُن فيها أسَاود صُبا، يضرب بعضكم رقاب بعض، وخير الناس يومئذ: رجل يتقي ربه ويدع الناس من شره»**(١)

الأساود: جمع أسْود، وهو أخبث الحيات وأعظمها.

والصبُّ: جمع صُبوب، على أن أصلَه: صُببٌ، كرسول ورسل، ثم خفف كرسل؛ وذلك أن الأسود إذا أراد أن ينهش ارتفع ثم انصبَّ على الملدوغ، ويروى **«صُبَّي»** على وزن: حبلى.

وفي (الصحيحين)(٢) عن حذيفة، أن النبي ﷺ ذكر له الفتن، فقال له: فما تأمرني يا رسول الله إن أدركني ذلك؟ قال: **«تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»** قال: فإن لم يكن جماعة ولا إمام؟

---

(١) رواه أحمد (٣/٤٧٧)

(٢) البخاري (٧٠٨٤) ومسلم (٦/٢٠)

قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**» وقد اعتزل جماعة من الصحابة في الفتن في البوادي.

وقال الإمام أحمد: إذا كانت الفتنة فلا بأس أن يعتزل الرجل حيث شاء، فأما إذا لم تكن فتنة فالأمصار خير. فأما سكنى البوادي على وجه العبادة وطلب السياحة والعزلة فمنهي عنه، كما في (الترمذي) [١] و(صحيح الحاكم) [٢]، عن أبي هريرة قال: مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينه من ماء عذب، فأعجبه طيبه وحسنه، فقال: لو اعتزلت الناس وأقمت في هذا الشعب ولا أفعل حتى أستأمر رسول الله ﷺ، فاستأمره، فقال: «**لا تفعل؛ فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في أهله ستين عامًا**».

وخرج الإمام أحمد [٣] نحوه من حديث أبي أمامة، عن النبي ﷺ وفيه: أن النبي ﷺ قال: «**لم أبعث باليهودية ولا النصرانية؛ ولكني بعثت بالحنيفية السمحة**». وذكر باقيه بمعناه.

وخرج أبو داود [٤] من حديث أبي أمامة أن رجلا قال: يا رسول الله! ائذن لي بالسياحة، فقال النبي ﷺ: «**إن سياحة أمتي: الجهاد في سبيل الله**».

وفي (المسند) [٥] عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «**عليك بالجهاد؛ فإنه رهبانية الإسلام**» وفي مراسيل طاووس، عن النبي ﷺ قال: «**لا رهبانية في الإسلام ولا سياحة**».

وفي المعنى مراسيل أخر متعددة.

قال الإمام أحمد: ليست السياحة من الإسلام في شيء، ولا من فعل النبيين ولا الصالحين.

والسياحة على هذا الوجه قد فعلها طوائف ممن ينسب على عبادة واجتهاد بغير علم، ومنهم من رجع لما عرف ذلك.

---

(١) (١٦٥٠)
(٢) (٦٨/٢)
(٣) (٢٦٦/٥)
(٤) (٢٤٨٦)
(٥) (٨٢/٣)

وقد كان في زمن ابن مسعود من المتعبدين خرجوا إلى ظاهر الكوفة وبنوا مسجدا يتعبدون فيه، منهم: عمرو بن عتبة، ومفضّل العجلي، فخرج إليهم ابن مسعود وردهم إلى الكوفة، وهدم مسجدهم وقال: إما أن تكونوا أهدى من أصحاب محمد أو تكونوا متمسكين بذَنَب الضلالة. وإسناده هذا صحيح عن الشعبي أنه حكى ذلك.

وقد رأى عبد الله بن غالب الحُدّاني رجلا في فلاة، يأتيه رزقه لا يدري من أين يأتيه، فقال له: إن هذه الأمة لم تؤمر بهذا؛ إنما أمرت بالجمعة والجماعة وعيادة المرضى وتشييع الجنائز، فقبل منه وانتقل من ساعته إلى قرية فيها هذا كله. خرج حكايته ابن أبي الدنيا.

وروي نحوُ هذه الحكاية أيضًا، عن أبي غالب صاحب أبي أمامة الباهلي. خرجها حميد بن زنجويه. وكذلك سكنى البوادي لتنمية المواشي والأموال –كما جرى لثعلبة في ماله– فمذموم أيضًا.

وفي (سنن ابن ماجه) [1] عن أبي هريرة مرفوعًا: «**ألا هل عسى أحدكم أن يتخذ الصَّبَّة من الغنم، على رأس ميل أو ميلين، فيتعذر عليه الكلأ فيرتفع، ثم تجيء الجمعة فلا يشهدها وتجيء الجمعة فلا يشهدها حتى يطبع على قلبه**». وخرَّجه الخلال من حديث جابر بمعناه أيضًا.

وخرج حميد بن زنجويه من رواية ابن لهيعة: ثنا عمر مولى غفرة أنه سمع ثعلبة بن أبي مالك الأنصاري يقول: قال حارثة بن النعمان: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج الرجل في حاشية القرية في غُنيمة يشهد الصلوات ويؤوب إلى أهله، حتى إذا أكل ما حوله، وتعذرت عليه الأرض، قال: لو ارتفعت إلى ردعة هي أعْفى كلأ من هذه؟ فيرتفع حتى لا يشهد من الصلوات إلا الجمعة حتى إذا أكل ما حوله وتعذرت عليه الأرض، قال: لو ارتفعت إلى ردعة هي أعْفى كلأ من هذه، فيرتفع حتى لا يشهد جمعة، ولا يدري: متى الجمعة حتى يطبع الله على قلبه**». وخرجه الإمام أحمد بمعناه. [2]

---

(١) (١١٢٧)

(٢) المسند (٥/٤٣٣-٤٣٤)

وفي (سنن أبي داود) والترمذي وغيرهما [١] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**من سكن البادية جفا**».

وقال ابن مسعود في الذي يعود أعرابيا بعد هجرته: إنه ملعون على لسان محمد ﷺ.

وفي (الصحيحين) [٢] أن سلمة بن الأكوع قال: أذن لي رسول الله ﷺ في البدو.

وفي رواية للبخاري أن سلمة لما قتل عثمان خرج إلى الربذة فلم يزل بها حتى قبل أن يموت بليال نزل المدينة.

وفي (المسند) [٣] أن سلمة قدم المدينة فقيل له: ارتددت عن هجرتك يا سلمة؟ فقال: معاذ الله إني في إذن من رسول الله ﷺ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ابدُوا يا أسلم، فتنسموا الرياح واسكنوا الشعاب**» فقالوا: يا رسول الله! إنا نخاف أن يضرنا ذلك في هجرتنا، قال: «**أنتم مهاجرون حيث ما كنتم**».

وفي الطبراني [٤] عن ابن عمر أنه قيل له: يا أبا عبد الرحمن! قد أعشبتِ القفار، فلو ابتعت أعنزا فتنزهت تصح، فقال: لم يؤذن لأحد منا في البداء غير أسلم. وأسلم: هي: قبيلة سلمة بن الأكوع.

وقد ترخص كثير من الصحابة من المهاجرين وغيرهم في سكنى البادية، كسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد، فإنهما لزما منزلهما بالعقيق فلم يكونا يأتيان المدينة في جمعة ولا غيرها حتى لحقا بالله عز وجل. خرجه بن أبي الدنيا في كتاب (العزلة).

وكان أبو هريرة ينزل بالشجرة وهي ذو الحليفة.

وفي (صحيح البخاري) [٥] عن عطاء قال: ذهبت مع عُبيد بن عُمير إلى عائشة، وهي مجاورة بثَبير فقالت لنا: انقطعت الهجرة منذ فتح الله على نبيه ﷺ مكة.

---

(١) أبو داود (٢٨٦٠)، الترمذي (٢٢٥٦)

(٢) البخاري (٧٠٨٧) ومسلم (٦/٢٧)

(٣) (٤/٥٥)

(٤) الأوسط (٧٥٣٣)

(٥) (٣٠٨٠)

وفي رواية له [1] قال: فسألنا عن الهجرة؟ فقالت: لا هجرة اليوم، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله ورسوله مخافة أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، والمؤمن يعبد ربه حيث شاء؛ ولكن جهاد ونية.

وهذا يشعر بأنها إنما كانت تبدو، لاعتقادها انقطاع الهجرة بالفتح.

وكان أنس بن مالك يسكن بقصره بالزاوية خارج البصرة، وكان ربما شهد الجمعة وربما لم يشهدها. [2]

وقد نص أحمد على كراهة المقام بقرية لا يقام فيها الجمعة، وإن أقيمت فيها الجماعة.

وقد يحملُ ذلك على من كان بمصر جامع يُجمع فيه، ثم تركه وأقام بمكان لا جمعة فيه.

وفي كلامه إيماء إليه أيضًا.

وقد يحمل كلامه على كراهة التنزيه دون التحريم.

فأما المقام بقرية لا جمعة فيها ولا جماعة فمكروه.

وقد قال أبو الدرداء لمعدان بن أبي طلحة: أين تنزل؟ فقال: بقرية دون حمص، فقال له: إن رسول الله ﷺ قال: «**ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا يؤذن ولا يقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة؛ فإن الذئب يأكل القاصية**». خرَّجه النسائي وغيره [3] وخرَّجه أحمد وأبو داود مختصرًا. [4]

وفي رواية لأحمد: [5] «**فعليك بالمدائن ويحك يا معدان**».

---

(١) (٣٩٠٠)

(٢) علقه البخاري في "كتاب الجمعة" باب (١٥)

(٣) في المجتبى (٢/ ١٠٦-١٠٧)

(٤) أحمد (٥/١٩٦) وأبو داود (٥٤٧)

(٥) المسند (٦/٤٤٥-٤٤٦)

وفي (المسند) [1] أيضًا، عن معاذ، عن النبي ﷺ قال: «**إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، يأخذ الشاة القاصية والناحية؛ فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمساجد**».

فنهى عن سكنى الشعاب -وهي البوادي- وأمر بسكنى الأماكن التي فيها عامة الناس ومساجدهم وجماعتهم.

وقد رُوي عن قتادة أنه فسر الشعاب في هذا الحديث بشعاب الأهواء المضلة المخالفة لطريق الهدي المستقيم. خرجه أبو موسى المديني عنه بإسناده. وفي هذا بعد؛ وإنما فسر بهذا المعنى قول النبي ﷺ: «**من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه**». [2]

فإن الأوزاعي فسره بالبدعة يخرج إليها الرجل من الجماعة.

فأما الخروج إلى البادية أحيانا للتنزه ونحوه في أوقات الربيع وما أشبهه: فقد ورد فيه رخصة: ففي (سنن أبي داود) [3] عن المقدام بن شريح، عن أبيه أنه قال: إنه سأل عائشة: هل كان النبي ﷺ يبدو؟ فقالت: نعم إلى هذه التلاع، ولقد بدا مرة فأتى بناقة محرَّمة، فقال: «**اركبيها يا عائشة وارفقي؛ فإن الرفق ما كان في شيء إلا زانه ولا نزع منه إلا شانه**». [4]

وخرجَّ مسلم [5] آخر الحديث دون أوله.

وورد النهي عنه؛ ففي (المسند) [6] عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال «**هلاك أمتي في اللبن**» قيل: يا رسول الله! ما اللبن؟ قال: «**تحبون اللبن وتدعون الجماعات والجمع وتبدون**». وفي إسناده: ابن لهيعة.

وإن صح فيُحمل على إطالة المقام بالبادية مدة أيام كثرة اللبن كلها، وهي مدة طويلة يَدَعون فيها الجمع والجماعات.

---

(١) (٥/٢٣٢-٢٣٣-٢٣٤)

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: أبو داود (٤٧٥٨)

(٣) (٢٤٧٨)

(٤) أبو داود (٢٤٧٨-٤٨٠٨)

(٥) (٨/٢٢)

(٦) (٤/١٥٥)

وعن أبي عبد الله الجدلي، قال: فضْل أهل الأمصار على أهل القرى كفضل الرجال على النساء، وفضل أهل القرى على أهل الكفور كفضل الأحياء على الأموات، وسكان الكفور كسكان القبور، وإن اللبن والعشب ليأكلان إيمان العبد كما تأكل النار الحطب. خرجه حميد بن زنجويه، وروى في إسناده عن مكحول معنى أوله.

ونص أحمد –في رواية مهنا– على كراهية الخروج إلى البادية لشرب اللبن ونحوه تنزها لما به من ترك الجماعة؛ إلا أن يخرج لعلة.

يعني: إنه إذا خرج تداويا لعِلّه به جاز، كما أذن النبي ﷺ للعرنيين لما اجتووا المدينة أن يخرجوا إلى البادية ليشربوا من ألبان الإبل وأبوالها. (١)

قال أبو بكر الأثرم: النهي عن التبدي محمول على سكنى البادية والإقامة بها، فأما التبدي ساعة أو يوما ونحوه فجائز. انتهى.

وقد كان السلف كثير منهم يخرج إلى البادية أيام الثمار واللبن.

قال الجريري: كان الناس يبدون ها هنا في الثمار –ثمار البصرة–، وذكر منهم: عبد الله بن شقيق وغيره. وكان علقمة يتبدّى إلى ظهر النجف. (٢) وقال النخعي: كانت البداوة إلى أرض السواد أحب إليهم من البداوة إلى أرض البادية. يعني أن الخروج إلى القرى أهون من الخروج إلى البوادي.

وكان بعضهم يمتنع من ذلك لشهود الجماعة.

فروى أبو نعيم بإسناده، عن أبي حرملة قال: اشتكى سعيد بن المسيب عينَه فقيل له: يا أبا محمد! لو خرجت إلى العقيق فنظرت إلى الخضرة، ووجدت ريح البرية، لنفع ذلك بصرك، فقال سعيد: وكيف أصنع بشهود العشاء والعتمة؟ (٣)

وما ذكره الأثرم من التفريق بين قِصَر المدة وطولها حسن؛ لكنه حد القليل باليوم ونحوه؛ وفيه نظر.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٣) من حديث أنس

(٢) ابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/٣٣٥)

(٣) الحلية (٢/ ١٦٢)

وفي (مراسيل أبي داود) [1] من رواية معمر، عن موسى بن شيبة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من بدا أكثر من شهرين فهي أعرابية»**.

وروى حميد بن زنجويه بإسناده، عن خلف بن خليفة، عن أبي هاشم قال: بلغني أن من نزل السواد أربعين ليلة كتب عليها الجفا.

وعن معاوية بن قرة قال: البداوة شهران فما زاد فهو تعرب. [2]

(١) المراسيل رقم (٣٠٧)

(٢) فتح الباري (١/ ١٢٠ إلى ١٢٩)

(فوائد ونفائس تتعلق بالفتن بجميع أنواعها من جميع كتب ابن رجب رحمه الله)

١- أصل الفتنة: الابتلاء والامتحان والاختبار، ويكون تارةً بما يسوء، وتارة بما يسر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء:٣٥]، وقال: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الأعراف:١٦٨] .

وغلب في العرف استعمال الفتنة في الوقوع فيما يسوء.

"فتح الباري" (٣/٢٧)

٢- والفتنة نوعان: أحدهما: خاصة، تختص بالرجل في نفسه. والثاني: عامة، تعم الناس.

فالفتنة الخاصة: ابتلاء الرجل في خاصة نفسه بأهله وماله وولده وجاره، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[التغابن:١٥]؛ فإن ذلك غالبًا يلهي عن طلب الآخرة والاستعداد لها، ويشغل عن ذلك.

ولما كان النبي ﷺ يخطب على المنبر، ورأى الحسن والحسين يمشيان ويعثران وهما صغيران، نزل فحملهما، ثم قال: «**صدق الله ورسوله، ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، إني رأيت هذين الغلامين يمشيان ويعثران فلم أصبر**».

وقد ذم الله تعالى من ألهاه ماله وولده عن ذكره، فقال: ﴿لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾[المنافقون:٩] .

فظهر بهذا: أن الأنسان يبتلى بماله وولده وأهله وبجاره المجاور له، ويفتتن بذلك، فتارةً يلهيه الاشتغال به عما ينفعه في آخرته، وتارةً تحمله محبته على أن يفعل لأجله بعض ما لا يحبه الله، وتارةً يقصر في حقه الواجب عليه، وتارةً يظلمه ويأتي إليه ما يكرهه الله من قول أو فعل، فيسأل عنه ويطالب به.

فإذا حصل للإنسان شيء من هذه الفتن الخاصة، ثم صلى أو صام أو تصدق أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر كان ذلك كفارةً له، وإذا كان الإنسان تسوؤه سيئته، ويعمل لأجلها عملًا صالحًا كان ذلك دليلًا على إيمانه.

"فتح الباري" (٣/٢٧-٢٨)

٣- وأما الفتن العامة: فهي التي تموج موج البحر، وتضطرب، ويتبع بعضها بعضًا كأمواج البحر، فكان أولهما فتنة قتل عثمان –رضي الله عنه–، وما نشأ منها من افتراق قلوب المسلمين، وتشعب أهوائهم وتكفير بعضهم بعضًا، وسفك بعضهم دماء بعض، وكان الباب المغلق الذي بين الناس وبين الفتن عمر رضي الله عنه، وكان قتل عمر كسرًا لذلك الباب، فلذلك لم يغلق ذلك الباب بعده أبدًا.

وكان حذيفة أكثر الناس سؤالًا للنبي ﷺ عن الفتن، وأكثر الناس علمًا بها، فكان عنده عن النبي ﷺ علم بالفتن العامة والخاصة، وهو حدّث عمر تفاصيل الفتن العامة، وبالباب الذي بين الناس وبينها، وأنه هو عمر، ولهذا قال: إني حدثته حديثًا ليس بالأغاليط، والأغاليط: جمع أغلوطة، وهي التي يغالط بها، واحدها: أُغلُوطة ومَغلطَة، والمعنى: أنه حدثه حديثًا حقًا، ليس فيه مرية، ولا إيهام.

"فتح الباري" (٣/٢٨-٢٩)

٤- وقد كانت الصحابة تعرف في زمان عمر أن بقاء عمر أمان للناس من الفتن.

وفي (مسند الإمام أحمد) أن خالد بن الوليد لما عزله عمر، قال له رجل: اصبر أيها الأمير، فإن الفتن قد ظهرت. فقال خالد: وابن الخطاب حي! إنما يكون بعده رضي الله عنهما.

وقد رُوي من حديث عثمان بن مظعون، أن النبي ﷺ سمى عمر: غلق الفتنة، وقال: «**لا يزال بينكم وبين الفتنة باب شديد الغلق ما عاش هذا بين أظهركم**».

خرَّجه البزار.

وروي نحوه من حديث أبي ذر.

وروى كعب، أنه قال لعمر: أجدك مصراع الفتنة، فإذا فتح لم يغلق أبدًا.

"فتح الباري" (٣/٢٩)

٥- عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج –وهو القتل القتل– حتى يكثر فيكم المال فيفيض**».

هذا قطعة من حديث طويل، قد خرجه بتمامه في (كتاب الفتن).

وتقارب الزمان، فسر بقصر الأعمار، وفسر بقصر الأيام في زمن الدجال.

وقد روي في ذلك أحاديث متعددة، الله أعلم بصحتها.

وأما كثرة الزلازل، فهو مقصود البخاري في هذا الباب من الحديث.

والظاهر: أنه حمله على الزلازل المحسوسة، وهي ارتجاف الأرض وتحركها.

ويمكن حمله على الزلازل المعنوية، وهي كثرة الفتن المزعجة الموجبة لارتجاف القلوب.

والأول أظهر؛ لأن هذا يغني عنه ذكر ظهور الفتن.

"فتح الباري" (٦/٢٤٩)

٦- وأما حديث عقبة بن عامر: فخرجه البخاري في غزوة أحد من رواية أبي الخير، عن عقبة، قال: صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحد بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر، فقال: «**إني بين أيديكم فرط، وأنا شهيد عليكم، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها**».

قال: فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ.

وخرَّجه مسلم أيضًا، وعنده: قال عقبة: فكانت آخر ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر.

وتوديعه للأحياء والأموات: هو أنه صلى على الموتى واستغفر لهم وهنأهم بما هم فيه من سبقهم للفتن.

وتوديعه للأحياء: هو نصيحتهم وتحذيرهم من الاغترار بالدنيا، وإيماؤه إلى أنه منتقل عنهم إلى الآخرة، وأنه سابق لهم إلى الحوض، فهو موعدهم.

وقد كان ﷺ أتى أهل البقيع بالليل فاستغفر لهم، ثم ذهب إلى شهداء أحد بالنهار فاستغفر لهم، ثم رجع فخطب هذه الخطبة، وودع الأحياء.

ففي (المسند) عن أبي مُوَيهبة، أن رسول الله ﷺ خرج ليلة إلى البقيع فاستغفر لأهل البقيع، وقال: «**ليَهنَكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، أقبلت الفتن – كقطع الليل المظلم، يتبع بعضها بعضا، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى**»، ثم قال: «**يا أبا مُويهبة إني قد أعطيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي، فاخترت لقاء ربي والجنة**» . ثم انصرف، فابتدأه وجعه الذي قبضه الله فيه.

"فتح الباري" (٢/٤٣١-٤٣٢)

٧- وقد صحت الأخبار عن النبي ﷺ بذم من يستمع القينات في آخر الزمان، وهو إشارة إلى تحريم سماع آلات الملاهي المأخوذة عن الأعاجم.

وأما الغناء المهيج للطباع، المثير للهوى، فلا يباح لرجل ولا لامرأة فعله ولا استماعه؛ فإنه داع إلى الفسق والفتنة في الدين والفجور فيحرم كما يحرم النظر بشهوة إلى الصور الجميلة؛ فإن الفتنة تحصل بالنظر وبالسماع؛ ولهذا جعل النبي ﷺ زنا العينين النظر، وزنا الأذن الاستماع.

ولا خلاف بين العلماء المعتبرين في كراهة الغناء وذمه وذم استماعه، ولم يرخص فيه أحد يعتد به.

"فتح الباري" (٦/٦٠-٦٢)

٨- وقد كان بعض المتقدمين يمشي بين يديه الشيطان في الليل إلى المسجد بضوء، فمنهم من يفطن لذلك فلم يغتر به، ومنهم من قل علمه فاغتر وافتتن بذلك؛ فإن جنس هذه الخوارق يُخشى منها الفتنة، إلا لمن قوي إيمانه ورسخ في العلم قدمه، وميز بين حقها وباطلها.

والحقُّ منها فتنة أيضًا؛ فإنه شبيه بالقدرة والسلطان الذي يعجز عنه كثير من الناس، فالوقوف معه والعجبُ به مُهلِك، وقد اتفق على ذلك مشايخ العارفين الصادقين، كما ذكره عنهم أبو طالب المكي في كتابه «قوت القلوب»، وأنهم رأوا الزهد فيه كما آثروا الزهد في الملك والسلطان والرياسة والشهرة؛ فإن ذلك كله فتنة ووبال على صاحبه، إلا لمن شكر عليه وتواضع فيه وخشي من الافتتان به.

وقد أخبر الله تعالى عن سليمان عليه السلام أنه لما رأى عرش ملكة سبأ عنده قال: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[النمل:٤٠].

"فتح الباري" (٤٢٧/٢)

٩- وفي خروج النساء إلي العيدين أحاديث كثيرة، قد سبق بعضها، ويأتي بعضها أيضًا.

وقد اختلف العلماء فيه على أقوال:

الثالث: أنه مكروه بعد النبي ﷺ، وهو قول النخعي ويحيى الأنصاري والثوري وابن المبارك. وأحمد –في رواية حرب –، قال: لا يعجبني في زماننا؛ لأنه فتنةٌ واستدل هؤلاء بأن الحال تغير بعد النَّبيّ ﷺ.

وقد قالت عائشة: لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء بعده لمنعهن المساجد، وقد سبق.

الخامس: –قول الشافعي–: يستحب الخروج للعجائز ومن ليست من ذوات الهيئات.

وفسر أصحابه ذوات الهيئات بذوات الحسن والجمال، ومن تميل النفوس إليها، فيكره لهن الخروج؛ لما فيهِ من الفتنة.

"فتح الباري" (١٠٨/٦)

١٠- قَالَ الخطابي: والفتنة عَلَى وجوه، ومعناها هاهنا: صرف النَّاس عَن الدين، وحملهم عَلَى الضلال. قَالَ تعالى: ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾[الصافات:١٦٢] أي: مضلين.

قال ابن رجب: وتفسيره الفتنة –هاهنا– يقصد لما قال الرسول لمعاذ: «**أفتان أنت**» بالإضلال بعيد، والأظهر: أن المراد بالفتنة هاهنا: الشغل عَن الصلاة؛ فإن من طول عَلَى من شق عَلِيهِ التطويل فِي صلاته، فإنه يشغله عَن الخشوع فِي صلاته، ويلهيه عَنْهَا، كما أن النَّبِيّ ﷺ لما نظر إلى أعلام الخميصة الَّتِي كَانَتْ عَلِيهِ فِي الصلاة نزعها، وَقَالَ: «**كادت تفتنني**» وأمر عَائِشَة أن تميط قرامها الَّذِي فِيهِ تصاوير، وَقَالَ: «**لا يزال تصاويره تعرض لِي فِي صلاتي**».

ومنه: تخفيفه ﷺ الصلاة لما سَمِعَ بكاء الصبي مخافة أن تفتتن أمه.

ومنه: قَوْلِ أَبِي طلحة، لما نظر إلى الطائر فِي صلاته وَهُوَ يصلي فِي حائطه حَتَّى اشتغل بِهِ عَن صلاته: لَقَدْ أصابني فِي مالي هَذَا فتنة.

وقد سبق ذكر ذَلِكَ كله، سوى حَدِيْث بكاء الصبي؛ فإنه سيأتي قريبًا إن شاء الله تعالى.

وسبق حَدِيْث آخر فِي الصلاة عَلَى الخمرة فِي هَذَا المعنى.

والفتنة فِي هذه المواضع كلها، هُوَ: الاشتغال عَن الصلاة، والالتهاء عَنْهَا.

ويجوز أن يكون مِنْهُ قَوْلِ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[التغابن:١٥]، وأن يكون المراد: أنها تشغل عَن عُبَادَة الله وذكره.

ويدل عَلِيهِ: أن النَّبِيّ ﷺ لما كَانَ يخطب ورأى الْحَسَن والحسين قَدْ أقبلا، نَزَلَ فحملهما، ثُمَّ قَالَ: «صدق الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[التغابن:١٥]، إني رأيت هذين الغلامين يمشيان ويعثران، فَلَمْ أصبر».

"فتح الباري" (٤/١٧٤-١٧٥)

١١- ويدل على كراهة الصلاة في المقبرة ولو كانت قبور المشركين؛ لما فيه من سد الذريعة إلى اتخاذ القبور مساجد، فإنه إذا تطاول العهد، ولم تعرف الحال، خُشي من ذلك الفتنة.

"فتح الباري" (٢/٢٣٠)

١٢- وخرَّج الإمامُ أحمدُ، وأبو داود من حديث أبي ذرٍّ: أنَّ النَّبِيّ ﷺ قال: «إذا غَضِبَ أحدُكُم وهو قائِمٌ، فَلْيَجْلِسْ، فإنْ ذَهَبَ عَنه الغضبُ وإلا فليَضطجعْ».

وقد قيل: إنَّ المعنى في هذا أنَّ القائم متهيِّئ، للانتقام والجالس دونَه في ذلك، والمضطجع أبعدُ عنه، فأمره بالتباعد عن حالةِ الانتقام، ويَشْهَدُ لذلك أنَّه رُوي من حديث سِنان بنِ سعد، عن أنسٍ، عن النَّبِيّ ﷺ، ومن حديث الحسن مرسلًا عن النَّبِيّ ﷺ قال: «الغَضَبُ جَمرةٌ في قَلبِ الإنسانِ تَوَقَّدُ، ألا ترى إلى حُمرةِ عَيْنَيهِ وانْتِفَاخِ أوداجِهِ، فإذا أحس أحدُكُم مِنْ ذلك شيئًا، فليَجْلِسْ، ولا يَعْدُوَنَّه الغَضَبُ».

والمرادُ: أنَّه يحبسه في نفسه، ولا يُعديه إلى غيره بالأذى بالفعلِ، ولهذا المعنى قال النَّبيُّ ﷺ في الفتن: «**إنَّ المضطجِعَ فيها خَيْرٌ من القَاعِدِ، والقَاعِدَ فيها خيرٌ من القَائِمِ، والقائمَ خَيرٌ مِنَ المَاشِي، والمَاشِي خَيرٌ مِنَ السَّاعي**».

وإنْ كان هذا على وجه ضرب المثالِ في الإسراع في الفتن، إلا أنَّ المعنى: أنَّ من كان أقرب إلى الإسراع فيها، فهو شرٌّ ممن كان أبعد عن ذلك.

"جامع العلوم والحكم" (١/٤٥٥)

١٣- وأما الخروج عليهم -يقصد الأمراء- بالسَّيف، فيخشى منه الفتنُ التي تؤدِّي إلى سفك دماءِ المسلمين. نعم، إنْ خشي في الإقدام على الإنكار على الملوك أن يُؤذى أهلُه أو جيرانه، لم ينبغِ له التعرُّض لهم حينئذ، لما فيه مِنْ تعدِّي الأذى إلى غيره، كذلك قال الفضيلُ بنُ عياض وغيره، ومع هذا، فمتى خافَ منهم على نفسه السَّيف، أو السَّوط، أو الحبس، أو القيد، أو النَّفيَ، أو أخذ المال، أو نحوَ ذلك مِنَ الأذى، سقط أمرُهم ونهيُهم، وقد نصَّ الأئمَّةُ على ذلك، منهم: مالكٌ وأحمدُ وإسحاق وغيرهم.

قال أحمد: لا يتعرَّضُ للسُّلطان، فإنَّ سيفَه مسلولٌ.

وقال ابنُ شُبرمَة: الأمرُ بالمعروف، والنَّهيُ عن المنكر كالجهاد، يجبُ على الواحد أن يُصابِرَ فيه الاثنين، ويَحْرُم عليه الفرارُ منهما، ولا يجبُ عليهم مصابرةُ أكثرَ من ذلك.

فإن خافَ السَّبَّ، أو سَماعَ الكلامِ السَّيء، لم يسقط عنه الإنكار بذلك نصَّ عليه الإمام أحمد، وإن احتمل الأذى، وقوِيَ عليه، فهو أفضلٌ، نصَّ عليه أحمد أيضًا، وقيل له: أليس قد جاء عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**ليس للمؤمن أن يُذِلَّ نفسه**» أن يعرّضها مِنَ البلاء لما لا طاقة له به، قال: ليس هذا من ذلك.

ويدلُّ على ما قاله ما خرَّجه أبو داود وابن ماجه والترمذيُّ من حديث أبي سعيد عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**أفضلُ الجهاد كلمةُ عدلٍ عند سُلطانٍ جائرٍ**».

وخرَّج ابنُ ماجه معناه من حديث أبي أُمامة.

"جامع العلوم والحكم" (٢/٢٦٦-٢٦٧)

١٤- وقد روي عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه ذكر فتنًا تكونُ في آخر الزَّمان، فقال له عمر: متَى ذلك يا عليُّ؟ قال: إذا تُفُقِّه لغير الدين، وتُعُلِّم لغير العمل، والتمست الدنيا بعمل الآخرة.

- وعن ابن مسعود أنَّه قال: كيف بكم إذا لَبِستكم فتنةٌ يربو فيها الصغيرُ، ويَهْرَمُ فيها الكبيرُ، وتُتَّخَذُ سُنةً، فإنْ غيرت يومًا قيل: هذا منكر؟! قالوا: ومتى ذَلِكَ؟ قال: إذا قلَّت أمناؤكم، وكثرت أمراؤُكم، وقلَّت فقهاؤُكم، وكثر قُرَّاؤُكم، وتُفُقِّهَ لغير الدين، والتُمِسَتِ الدنيا بعمل الآخرة. خرَّجهما عبد الرزاق في كتابه.

ولهذا المعنى كان كثيرٌ من الصحابة والتابعين يكرهون السؤال عن الحوادث قبلَ وقوعها، ولا يُجيبون عن ذلك، قال عمرو بن مُرة: خرج عمرُ على الناس، فقال: أُحرّجُ عليكم أنْ تسألونا عن ما لم يكن، فإنَّ لنا فيما كان شغلًا.

وعن ابن عمر، قال: لا تسألوا عما لم يكن، فإني سمعتُ عمر لعنَ السَّائل عمَّا لم يكن.

وكان زيدُ بنُ ثابتٍ إذا سُئِلَ عن الشَّيءِ يقول: كان هذا؟ فإنْ قالوا: لا، قال: دعوه حتّى يكون .

"جامع العلوم والحكم" (١/٢٨٥-٢٨٦)

١٥- وقال رجلٌ من العلماء عند عمرَ بنِ عبد العزيز رحمه الله: الصَّامت على علمٍ كالمتكلم على علمٍ، فقال عمر: إنِّي لأرجو أنْ يكونَ المتكلمُ على علم أفضلهما يوم القيامة حالًا، وذلك أنَّ منفعته للناس، وهذا صمتُه لنفسه، فقال له: يا أمير المؤمنين وكيف بفتنة المنطق ؟ فبكى عمرُ عند ذلك بكاءً شديدًا.

ولقد خطب عمر بن عبد العزيز يومًا فرقَّ الناسُ وبكَوا، فقطع خطبته، فقيل له: لو أتممتَ كلامك رجونا أنْ ينفعَ الله به، فقال عمر: إنَّ القولَ فتنة والفعل أولى بالمؤمن من القول.

وكنت من مدَّةٍ طويلةٍ قد رأيتُ في المنام أميرَ المؤمنين عمرَ بنَ عبد العزيز ، وسمعته يتكلَّمُ في هذه المسألة، وأظنُّ أنِّي فاوضتُه فيها، وفهمتُ من كلامِه أنَّ التكلُّم بالخير أفضلُ من السُّكوتِ، وأظُنُّ أنَّه وقع في أثناء الكلام ذكرُ سليمان ابن عبد الملك، وأنَّ عمر قال ذلك له.

وقد رُويَ عن سليمانَ بن عبد الملك أنَّه قال: الصمت منامُ العقل، والمنطقُ يَقظَتُهُ، ولا يتمُّ حالٌ إلا بحالٍ، يعني: لابدَّ من الصَّمت والكلام.

وما أحسنَ ما قال عُبيدُ الله بن أبي جعفر فقيه أهل مصر في وقته، وكان أحدَ الحكماء: إذا كان المرءُ يحدِّث في مجلسٍ، فأعجبه الحديثُ فليسكتْ، وإذا كان ساكتًا، فأعجبه السكوتُ، فليُحدِّث.

وهذا حسنٌ فإنَّ من كان كذلك، كان سكوتُه وحديثُه لمخالفة هواه وإعجابه بنفسه، ومن كان كذلك، كان جديرًا بتوفيق الله إيَّاه وتسديده في نطقه وسكوته؛ لأنَّ كلامَه وسكوتَه يكونُ لله عز وجل.

"جامع العلوم والحكم" (١/٤٢٢-٤٢٣)

١٦- وخرَّج أيضًا -يقصد الإسماعيلي- من رواية الأوزاعي، عن عُمير بن هانئ، عن عليٍّ سمع النَّبيَّ ﷺ يقول: «**سيكون بعدي فتنٌ لا يستطيع المؤمن فيها أن يغيِّر بيدٍ ولا بلسانٍ**»، قلتُ: يا رسولَ الله، وكيف ذاك؟ قالَ: «**يُنكرونه بقلوبهم**»، قلتُ: يا رسول الله، وهل يَنقُصُ ذَلِكَ إيمانَهم شيئًا؟ قال: «**لا، إلا كما يَنقُصُ القَطْرُ من الصَّفا**»، وهذا الإسناد منقطع. وخرَّج الطبراني معناه من حديث عبادة بن الصامت عن النَّبيِّ ﷺ بإسنادٍ ضعيفٍ.

فدلَّت هذه الأحاديثُ كلُّها على وُجُوبِ إنكارِ المنكر بحسب القُدرة عليه، وأنَّ إنكارَه بالقلب لابدَّ منه، فمن لم يُنْكِرْ قلبُه المنكرَ، دلَّ على ذَهابِ الإيمانِ مِنْ قلبِه.

"جامع العلوم والحكم" (٢/٢٥٩)

١٧- وقد ورد ما يستدلُّ به على سقوط الأمر والنهي عندَ عدم القَبول والانتفاع به، ففي سنن أبي داود وابن ماجه والترمذي عن أبي ثعلبة الخشني أنَّه قيل له: كيف تقولُ في هذه الآية: ﴿**عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ**﴾، فقال: أما والله لقد سألتُ عنها خبيرًا سَألتُ عنْهَا رسول الله ﷺ، فقال: «**بل ائتمِروا بالمعروف، وتَنَاهوا عن المنكرِ، حتى إذا رأيتَ شُحًّا مُطاعًا، وهوىً مُتَّبعًا، ودُنيا مُؤْثَرةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه، فعليك بنفسك، ودع عنك أمر العوامِّ**».

وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمرو، قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ، إذ ذكر الفتنة، فقال: «**إذا رأيتُمُ الناس مَرِجَتْ عهودُهم، وخفَّت أماناتُهم، وكانوا هكذا**» وشبك بين أصابعه، فقمتُ إليه، فقلت: كيف أفعلُ عندَ ذلك، جعلني الله فداك؟ قال: «**الزم بيتَك،**

واملِكْ عليك لسانك، وخُذْ بما تَعرِفْ، ودع ما تُنكرُ، وعليك بأمر خاصَّةِ نفسك، ودع عنك أمرَ العامَّة».

وكذلك رُوي عن طائفة من الصحابة في قوله تعالى: ﴿**عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾، قالوا: لم يأت تأويلُها بعدُ، إنَّما تأويلها في آخر الزمان.

وعن ابن مسعود، قال: إذا اختلفتِ القلوبُ والأهواءُ، وأُلبِستُم شِيَعًا، وذاقَ بعضُكم بأسَ بعضٍ، فيأمرُ الإنسانُ حينئذٍ نفسَه، حينئذ تأويل هذه الآية.

وعن ابن عمرَ، قال: هذه الآية لأقوامٍ يجيئون من بعدنا، إنْ قالوا لم يُقْبَلْ منهم.

وقال جبير بنُ نُفيرٍ عن جماعة من الصَّحابة، قالوا: إذا رأيتَ شحًّا مُطاعًا وهوىً متَّبعًا، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه، فعليك بنفسِكَ، لا يضرُّك من ضلَّ إذا اهتديتَ.

وعن مكحول، قال: لم يأتِ تأويلها بعدُ، إذا هاب الواعظ، وأنكر الموعوظ، فعليك حينئذٍ بنفسك لا يضرُّك من ضلَّ إذا اهتديت.

"جامع العلوم والحكم" (٢/٢٦٩-٢٧٠-٢٧١)

١٨- قوله ﷺ: «**وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون**» المقصود بهذا الدعاء سلامة العبد من فتن الدُّنْيَا مدة حياته، فإن قُدِّر الله عَلَى عباده فتنة قبض عبده إِلَيْهِ قبل وقوعها، وهذا من أهم الأدعية، فإن المؤمن إذا عاش سليمًا من الفتن ثم قبضه الله قبل وقوعها وحصول الناس فيها كان في ذلك نجاة له من الشر كله، وقد أمر النبي ﷺ أصحابه أن يتعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وفي حديث آخر: «**وجنبنا الفواحش والفتن ما ظهر منها وما بطن**».

"مجموع الرسائل" (٤/٧٥)

١٩- وكان يخص-يقصد النبي عليه الصلاة والسلام- بعض الفتن العظيمة بالذكر، فكان يتعوَّذ في صلاته من أربع، ويأمر بالتعوذ منها: «**أعوذ بالله من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال**» ففتنة المحيا يدخل فيها فتنُ الدين والدنيا كلها، كالكفر والبدع والفسوق والعصيان.

وفتنة الممات يدخل فيها سوء الخاتمة وفتنة الملكين في القبر، فإن الناس يفتنون في قبورهم مثل أو قريبًا من فتنة الدجال.

ثم خصَّ فتنة الدجال بالذكر لعظم موقعها، فإنَّه لم يكن في الدُّنْيَا فتنة قبل يوم القيامة أعظم منها، وكلما قرب الزمان من الساعة كثرت الفتن.

وفي حديث معاوية عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**إنه لم يبق من الدُّنْيَا إلا بلاء وفتنة**».

"مجموع الرسائل" (٤/٧٦)

٢٠- وقد أخبر النبي ﷺ عن الفتن التي تكون كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدُّنْيَا.

وكان أول هذه الفتن ما حدث بعد عمر رضي الله عنه، ونشأ من تلك الفتن قتلُ عثمان رضي الله عنه، وما ترتب عليه من إراقة الدماء وتفرُّق القلوب وظهور فتن الدين كبدع الخوارج المارقين من الدين وإظهارهم ما أظهروا، ثم ظهور بدع أهل القدر والرفض ونحوهم، وهذه هي الفتنة التي تموج كموج البحر المذكورة في حديث حذيفة المشهور حين سأله عنها عمر، وكان حذيفة رضي الله عنه من أكثر الناس سؤالًا للنبي ﷺ عن الفتن؛ خوفًا من الوقوع فيها. ولما حضره الموت قال: حبيب جاء عَلَى فاقة، لا أفلح من ندم! الحمد لله الَّذِي سبق بي الفتنة! قادتها وعلوجها. وكان موته قبل قتل عثمان رضي الله عنه بنحو من أربعين يومًا، وقيل: بل مات بعد قتل عثمان.

وكان في تلك الأيام رجل من الصحابة نائمًا، فأتاه آتٍ في منامه فَقَالَ له: قم! فاسأل الله أن يعيذك من الفتنة التي أعاذ منها صالح عباده، فقام فتوضأ وصلى، ثم اشتكى ومات بعد قليل).

وقد رُوي عن النبي ﷺ أنَّه قال لرجل: «إذا مت أنا وأبو بكر وعمر وعثمان فإن استطعت أن تموت فمت»، وهذا إشارة إِلَى هذه الفتن التي وقعت بمقتل عثمان رضي الله عنه.

"مجموع الرسائل" (٤/٧٦-٧٧)

٢١- والدعاء بالموت خشية الفتنة في الدين جائزٌ، وقد دعا به الصحابة والصالحون بعدهم، ولما حج عمر رضي الله عنه آخر حجة حجها استلقى بالأبطح ثم رفع يديه وقال: اللهم إنه

قد كبرت سني، ورق عظمي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفتون. ثم رجع إِلَى المدينة فما انسلخ الشهر حتى قتل رضي الله عنه.

ودعا علي ربه أن يريحه من رعيته حيث سئم منهم فقتل عن قريب.

ودعت زينب بنت جحش لما جاءها عطاءُ عمر من المال فاستكثرته وقالت: اللهم لا يدركني عطاء عمر بعدها، فماتت قبل العطاء الثاني.

ولما ضجر عمر بن عبد العزيز من رعيته حيث ثقل عليهم قيامه فيهم بالحق، طلب من رجل كان معروفا بإجابة الدعوة أن يدعو له بالموت، فدعا له ولنفسه بالموت فماتا.

ودعي طائفة من السَّلف الصالح إِلَى ولاية القضاء، فاستمهلوا ثلاثة أيام فدعوا الله لأنفسهم بالموت فماتوا.

واطُّلع عَلَى حال بعض الصالحين ومعاملاته التي كانت سرًّا بينه وبين ربه، فسأل الله أن يقبضه إِلَيْهِ خوفًا من فتنة الاشتهار فمات.

فإن الشهرة بالخير فتنة كما جاء في الحديث: «**كفى بالمرء فتنة أن يُشار إِلَيْهِ بالأصابع، فإنها فتنة**».

كان سفيان الثوري يتمنى الموت كثيرًا فسئل عن ذلك، فَقَالَ: ما يدريني! لعلي أدخل في بدعة، لعلي أدخل فيما لا يحلّ لي، لعلي أدخل في فتنة، أكون قد مت فسبقت هذا.

"مجموع الرسائل" (٤/٧٨-٧٩)

٢٢- واعلم أن الإنسان لا يخلوا من فتنة، قال ابن مسعود: لا يقل أحدكم: أعوذ بالله من الفتن، ولكن ليقل: أعوذ بالله من مضلات الفتن. ثم تلا قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾[التغابن:١٥].

يشير إِلَى أنَّه لا يستعاذ من المال والولد وهما فتنة.

وفي المسند أن النبي ﷺ أمر أم سلمة أن تقول: «**اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أبقيتني**».

"مجموع الرسائل" (٤/٨٠)

٢٣- وقد جعل النبي، النساء والأموال فتنة، ففي الصحيح عنه ﷺ قال: «**ما تركت بعدي فتنة أضر عَلَى الرجال من النساء**».

وفيه أيضًا أنَّه ﷺ قال: «**والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدُّنْيَا كما بُسطت عَلَى من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**».

وفي صحيح مسلم عنه ﷺ قال: «**اتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**».

وفي الترمذي أنَّه ﷺ قال: «**لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال**».

وقد قال الله عز وجل: ﴿**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا**﴾[الفرقان:٢٠]، فالرجل فتنة للمرأة، والمرأة فتنة للرجل، والغني فتنة للفقير، والفقير فتنة للغني، والفاجر فتنة للبر، والبر فتنة للفاجر، والكافر فتنة للمؤمن، والمؤمن فتنة للكافر قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾[الأنعام:٥٣]، وقال عز وجل: ﴿**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**﴾[الأنبياء:٣٥]، فجعل كل ما يصيب الإنسان من شر أو خير فتنة، يعني أنَّه محنة يُمتحن بها، فإن أصيب بخير امتحن به شكره، وإن أصيب بشر امتحن به صبره.

"مجموع الرسائل" (٤/٨٠)

٢٤- وفتنة السراء أشد من فتنة الضراء، قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: بُلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر.

وقال بعضهم: فتنة الضراء يصبر عليها البر والفاجر، ولا يصبر عَلَى فتنة السراء إلا صدّيق.

ولما ابتلي الإمام أحمد بفتنة الضراء صبر ولم يجزع، وقال: كانت زيادة في إيماني. فلما ابتلي بفتنة السراء جزع وتمنّى الموت صباحًا ومساء، وخشي أن يكون نقصًا في دينه.

"مجموع الرسائل" (٤/٨٠-٨١)

٢٥- ثم إن المؤمن لابد أن يُفتن بشيء من الفتن المؤلمة الشاقة عليه ليُمتحن إيمانه كما قال الله تعالى: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[العنكبوت:٢-٣]، ولكن الله يلطف بعباده المؤمنين في هذه الفتن، ويصبرهم عليها، ويثيبهم فيها، ولا يلقيهم في فتنة مضلة مهلكة تذهب بدينهم، بل تمر عليهم الفتن وهم فيها في عافية.

وأخرج ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر مرفوعًا: «**إن لله ضنائن من عباده يغذوهم في رحمته، ويحييهم في عافية، ويتوفاهم إِلَى جنته، أولئك الذين تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم، وهم فيها في عافية**».

"مجموع الرسائل" (٤/٨١)

٢٦- والفتن الصغار التي يُبتلى بها المرء في أهله وماله وولده وجاره تكفِّرها الطاعات من الصلاة والصيام والصدقة كذا جاء في حديث حذيفة.

ورُوي عنه أن سأل النبي ﷺ قال: إن في لساني ذربًا، وإن عامة ذلك عَلَى أهلي. فَقَالَ له: «**أين أنت من الاستغفار**»؟!.

وأما الفتن المضلة التي يخشى منها فساد الدين فهي التي يُستعاذ منها، ويسأل الموت قبلها، فمن مات قبل وقوعه في شيء من هذه الفتن فقد حفظه الله وحماه.

وفي المسند عن محمود بن لبيد عن النبي ﷺ قال: «**اثنتان يكرههما ابن آدم: يكره الموت، والموت خيرٌ للمؤمن من الفتنة، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب**».

"مجموع الرسائل" (٤/٨٢)

٢٧- ثم ظهر الإسلام بعد الهجرة إلى المدينة وعز، وصار أهله ظاهرين كل الظهور، ودخل الناس بعد ذلك في دين الله أفواجا، وأكمل الله لهم الدين وأتم عليهم النعمة.

وتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك، وأهل الإسلام على غاية من الاستقامة في دينهم، وهم متعاضدون متناصرون، وكانوا على ذلك في زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم أعمل الشيطان مكائده على المسلمين وألقى بأسهم بينهم، وأفشى بينهم فتنة الشبهات والشهوات، ولم تزل هاتان الفتنتان تتزايدان شيئا فشيئا حتى استحكمت مكيدة الشيطان وأطاعه أكثر

الخلق، فمنهم من دخل في طاعته في فتنة الشبهات، ومنهم من دخل في فتنة الشهوات، ومنهم من جمع بينهما، وكل ذلك مما أخبر النبي ﷺ بوقوعه.

"مجموع الرسائل" (١/٣١٧)

٢٨- فأما فتنة الشبهات: فقد روي عن النبي ﷺ من غير وجه أن أُمته ستفترق على أزيد من سبعين فرقة على اختلاف في الروايات في عدد الزيادات على السبعين، وأن جميع تلك الفرق في النار إلا فرقة واحدة، وهي ما كانت على ما هو عليه وأصحابه ﷺ.

وأما فتنة الشهوات: ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**كيف أنتم إذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم. أي قوم أنتم؟**» قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله. قال: «**أو غير ذلك؟ تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون**».

وفي صحيح البخاري عن عمرو بن عوف عن النبي ﷺ قال: «**والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم**».

وفي الصحيحين من حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ معناه أيضًا.

ولما فتحت كنوز كسرى على عمر بن الخطاب رضي الله عنه بكى فقال: إن هذا لم يفتح على قوم قط إلا جعل الله بأسهم بينهم. أو كما قال.

"مجموع الرسائل" (١/٣١٧-٣١٨)

٢٩- وكان النبي ﷺ يخشى على أمته هاتين الفتنتين كما في مسند الإمام أحمد بن حنبل عن أبي برزة عن النبي ﷺ قال: «**إنما أخشى عليكم الشهوات التي في بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن**». وفي رواية: «**ومضلات الفتن**».

فلما دخل أكثر الناس في هاتين الفتنتين أو إحداهما أصبحوا متقاطعين متباغضين بعد أن كانوا إخوانا متحابين متواصلين، فإن فتنة الشهوات عمت غالب الخلق ففتنوا بالدنيا وزهرتها وصارت غاية قصدهم، لها يطلبون، وبها يرضون، ولها يغضبون، ولها يوالون، وعليها يعادون، فقطعوا لذلك أرحامهم وسفكوا دماءهم وارتكبوا معاصي الله بسبب ذلك.

وأما فتنة الشبهات والأهواء المضلة فبسببها تفرق أهل القبلة، وصاروا شيعًا، وكفر بعضهم بعضا، وأصبحوا أعداءً وفرقا وأحزابا بعد أن كانوا إخوانا قلوبهم على قلب رجل واحد، فلم ينج من هذه الفرق إلا الفرقة الواحدة الناجية، وهم المذكورون في قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**».

وهم في آخر الزمان الغرباء المذكورون في هذه الأحاديث: «**الذين يُصلحون إذا فسد الناس**»، وهم «**الذين يُصلحون ما أفسد الناس من السنة**»، وهم «**الذين يفرون بدينهم من الفتن**»، وهم «**النزاع من القبائل**»، لأنهم قلُّوا، فلا يوجد في كل قبيلة منهم إلا الواحد والاثنان، وقد لا يوجد في بعض القبائل منهم أحدٌ كما كان الداخلون إلى الإسلام في أول الأمر كذلك، وبهذا فسر الأئمة هذا الحديث.

"مجموع الرسائل" (١/٣١٨-٣١٩)

٣٠- وقد كان السلف قديما يصفون المؤمن بالغربة في زمانهم كما سبق مثله عن الحسن والأوزاعي وسفيان وغيرهم.

ومن كلام أحمد بن عاصم الأنطاكي -وكان من كبار العارفين في زمان أبي سليمان الداراني- يقول: إني أدركت من الأزمنة زمانا عاد فيه الإسلام غريبا كما بدأ، وعاد وصفُ الحق فيه غريبا كما بدأ، إن ترغب فيه إلى عالم وجدته مفتونا بحب الدنيا، يُحب التعظيم والرئاسة، وإن ترغب فيه إلى عابد وجدته جاهلا في عبادته مخدوعا صريعا غدره إبليس، وقد صعد به إلى أعلى درجة من العبادة وهو جاهل بأدناها فكيف له بأعلاها؟ وسائر ذلك من الرعاع، همج عوج وذئاب مختلسة، وسباع ضارية وثعالب ضوار، هذا وصف عيون أهل زمانك من حملة العلم والقرآن ودعاة الحكمة. خرجه أبو نعيم في الحلية.

فهذا وصف أهل زمانه فكيف بما حدث بعده من العظائم والدواهي التي لم تخطر بباله ولم تدُر في خياله؟

"مجموع الرسائل" (١/٣٢٢)

٣١- قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

قال سفيان: الفتنة أن يطبع الله عَلَى قلوبهم.

"مجموع الرسائل" (١/٢٤٤)

٣٢- وقد صنَّفَ أبو بكر الآجري -وكان من العُلَمَاء الربَّانيين في أَوائلِ المائةِ الرابعة- مصنفًا في (أخلاق العُلَمَاء وآدابِهم) وهو من أجلِّ ما صُنِّف في ذلك، ومن تأمَّله علمَ منه طريقة السَّلفِ من العُلَمَاء، والطرائقَ التي حَدَثَتْ بعدهم المخالفةَ لطريقتهم، فوصفَ فيه عالم السوء بأوصافٍ طويلة.

منها: أنّه قال: قد فتنه حبُّ الثناءِ والشَّرفِ والمنزلةِ عند أهل الدُّنْيَا، يتجملُ بالعلم كما يتجمل بالحلةِ الحسناء للدنيا، ولا يجمَّل علمه بالعمل به.

وذكر كلامًا طويلًا إِلَى أن قال: فهذه الأخلاقُ وما يشبهُها تغلبُ عَلَى قلب من لم ينتفعْ بالعلم، فبينا هو مُقاربٌ لهذه الأخلاقِ إذ رَغبتْ نفسُه في حبِّ الشَّرفِ والمنزلةِ، فأحبَّ مجالسةَ الملوكِ وأبناءِ الدُّنْيَا، فأحب أن يشاركهم فيما هُم فيهِ من منظرٍ بَهِيٍّ، ومَركبٍ هَنِيٍّ، وخادم سَرِيٍّ، ولباسٍ ليّنٍ، وفِراشٍ ناعمٍ، وطعام شَهِيٍّ، وأَحبَّ أَن يُعتنى به، وأن يسمع قَولُه، ويُطَاعَ أَمرُه، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ إلا مِن جهةِ القَضاءِ فَطلبَهُ، فَلم يُمكنْهُ إلا بِبذلِ دِينِهِ، فَتَذَلَّلَ لِلمُلُوكِ وأتباعِهِم، فَخدمَهُم بِنَفْسِهِ، وأَكرَمَهُم بِمَالِهِ، وسَكتَ عَن قَبيحِ مَا ظَهَرَ من منازل أبوابهم، وفي منازلهم وفعلهم، ثم زيَّنَ لَهم كثيرًا من قَبيحِ فِعلهم بتأوُّلِهِ الخطأ ليحسن موقعه عندهم، فَلمَّا فعلَ هذه مُدةً طويلةً واسْتحكَمَ فيه الفسادُ وَلَّوْهُ القضاءَ فذبح بغيرِ سِكينٍ، فصارتْ لَهُم عليه مِنَّةٌ عَظِيمةٌ، ووجبَ عليه شُكرُهم، فآلَمَ نفسه لئلاَّ يُغضِبهُم عليه فَيعزِلوهُ عن القضاءِ، ولم يلتفتْ إِلَى غَضبِ مَولاهُ، فاقْتطعَ أموالَ اليتامَى والأَراملِ، والفُقراءِ والمساكين، وأموالَ الوَقفِ الموقوفة عَلَى المجاهدينَ، وأهلِ الشَّرفِ بالحرمين، وأموالًا يعودُ نفعُها عَلَى جميعِ المسلمين، فأرضى بها الكاتبَ والحاجب والخادمَ، فأكلَ الحرامَ وأطعمَ الحرامَ وكَثُرَ الداعي عليهِ، فالويلُ لمن أورثَه علمُه هذهِ الأخلاقَ.

هذا العِلْم الَّذِي استعاذَ منه النبيُّ ﷺ وأمر أن يُستعاذَ منه، وهذا العِلْم الَّذِي قالَ فيهِ-عليه الصلاة والسلام-: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ، عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِعِلْمِهِ».

وكان ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ».

وكان عليه السلام يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ».

هذا كُلُّهُ كَلامُ الإمام أبي بَكرٍ الآجُري -رحمه الله تعالى- وكان في أَواخِرِ الثلاثمائة، ولم يَزَلِ الفسادُ مُتَزَايِدًا عَلَى ما ذَكرناه أضعافًا مُضَاعَفَةً، فلا حولَ ولا قوةَ إلا بالله.

"مجموع الرسائل" (١/٧٢-٧٣)

٣٣- وقد كان كثير من السلفِ ينهونَ عن الدخولِ عَلَى الملوكِ لمن أراد أمرهُم بالمعروفِ ونَهيهُم عن المنكر أيضًا.

ومِمَّن نهى عن ذلك: عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ وابنُ المباركِ والثَّوريُّ وغيرُهم من الأئمةِ.

وقال ابنُ المُبَارِكِ: ليسَ الأَمرُ الناهِي عندَنا من دَخلَ عليهم فأمرهُم ونهاهُم، إِنَّمَا الآمرُ الناهي من اعتزلهُم.

وسببُ هذا ما يُخشَى من فتنةِ الدخولِ عليهم؛ فإنَّ النَفسَ قد تُخيلُ للإنسانِ إذا كانَ بعيدًا عنهُم أنهُ يأمرُهم وينهاهُم ويغلّظُ عليهم، فَإِذَا شاهدهُم قريبًا مالتِ النَّفسُ إليهم؛ لأنَّ محبةَ الشَّرفِ كامنة في النفس، والنفسُ تحُسِّنُ له ذلك ومداهنتهم وملاطفتهم، وربما مالَ إليهم وأحبَّهُم، ولا سيما إن لاطفُوهُ وأكرموهُ وقبل ذلك منهم، وقد جرى ذلك لابن طاوسٍ مع بعض الأُمراءِ بحضرةِ أبيهِ طَاووسٍ فوبَّخَهُ طاووسٌ عَلَى فعلهِ ذلكَ.

"مجموع الرسائل" (١/٨٦)

٣٤- ولهذا أيضًا يعظم في نفوس كثير من الناس ذكر الخوارق والكرامات، ويرونها أفضل مما أعطيه العلماء من المعرفة والعلم، وإنما يتصورون حقيقة الخوارق؛ لأنها من جنس القدرة والسلطان في الدنيا، الَّذِي يعجز أكثر الناس عنه.

وأما العلماء بالله فلا تعظم هذه الخوارق عندهم؛ بل يرون الزهد فيها، وإنها من نوع الفتنة والمحنة وبسط الدنيا على العبد، فيخافون من الاشتغال بها والوقوف معها، والانقطاع عن الله عز وجل.

وقد ذكر أبو طالب المكي هذا المعنى في كتابه عن كثير من العارفين منهم أبو يزيد، ويحيى بن معاذ، وسهل التستري ، وذو النون، والجنيد وغيرهم.

وقيل لبعضهم: إن فلانًا يمشي على الماء! فَقَالَ: مَنْ أَمْكَنَهُ اللهُ مِنْ مُخَالَفَةِ هَوَاهُ فَهُوَ أَفْضَلُ.

"مجموع الرسائل" (١/٤٣)

٣٥- فإن الفتنة كما تحصل بالنظر والمشاهدة، فكذلك تحصل بسماع الأوصاف، واجتلائها من الشعر الموزون المحرك للشهوات، ولهذا نهى النبي ﷺ أن تصف المرأةُ المرأةَ لزوجها، كأنّه ينظر إليها؛ لما يخشى من ذلك من الفتنة، وقد جعل النبي ﷺ زنا العينين النظر، وزنا الأذنين الاستماع.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ثلاث فاتنات مُفتنات يُكببن في النار: رجلٌ ذو صورة حسنة، فاتن مفتون به يُكب في النار، ورجلٌ ذو شعر حسن، فاتن مفتون به يُكب في النار، ورجلٌ ذو صوت حسن، فاتن مفتون به يُكب في النار. خرجه حميد بن زنجويه في كتاب الأدب.

"مجموع الرسائل" (٢/٤٦١)

٣٦- وكان ابن مسعود يقول لمن تبعه: لو تعلمون ما أغلق عليه بابي لم يتَّبعني منكم أحد.

ورأى عمر قومًا يتبعون رجلًا فعَلاَهم بالدَّرة، وقال: إن خفق النعال خلف الأحمق، قل ما يُبقي من دينه.

مشى قومٌ مع معروف إِلَى بيته، فلما دخل قال لهم: مشيُنا هذا كان ينبغي لنا أن نتقيه، أليس جاء في الخبر: **«أنَّه فتنة للمتبوع مذلة للتابع»**.

وكان بعض العُلَمَاء في مجلسه فقام، فاتبعه جماعة فأعجبه ذلك، فرأى تلك الليلة في منامه قائلا يقول: سيعلمُ من يُحبُّ أن يُمشى خلفه غدًا.

ورئي سفيان في النوم بعد موته فقِيلَ لَهُ: ما فعل الله بك؟

قال: غفر لي. قِيلَ لَهُ: هل رأيت شيئًا تكرهه؟ قال: نعم، الإشارة بالأصابع -يعني قول الناس هذا سفيان.

الإشارة إِلَى الرجل بالأصابع فتنة، وإن كان في الخير.

وفي الحديث «**كَفَى بِالْمَرْءِ شَرًّا أَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فِي دِينِهِ أَوْ دُنْيَاهُ، إِلَّا مَن عَصَمَهُ اللهُ**».

كان بعض التابعين إذا جلس إِلَيْهِ أكثر من ثلاثة أنفس قام خوف الشهرة.

وكان علقمة يكثر الجلوس في بيته فقِيلَ لَهُ: ألا تخرج فتحدث الناس.

فَقَالَ: أكره أن يوطأ عقبي ويقال: هذا علقمة، هذا علقمة.

كان كثير من الصادقين من السَّلف يجتنب لباس الثياب التي يُظنُّ بأصحابها الخير، إبعادًا لهذا الظن عن أنفسهم.

وكان ابن محيريز يدعو فيقول: اللهم إني اسألك ذكرًا خاملًا.

وقال مطرف: انظروا قومًا إذا ذكروا ذكروا بالقراءة، فلا تكونوا منهم، وانظروا قومًا إذا ذكروا ذكروا بالفجور فلا تكونوا منهم، وكونوا بين ذلك.

وهذا هو الذكر الخفي المشار إِلَيْهِ في حديث سعد، وهو من أعظم نعم الله عَلَى عبده المؤمن، الَّذِي رزقه نصيبًا من ذوق الإيمان، فهو يعيش به مع ربه عيشًا طيبًا، ويحجبه عن خلقه حتى لا يُفسدُوا عليه حاله مع ربه، فهذه هي الغنيمة الباردة، فمن عرف قدرها وشكر عليها فقد تمت عليه النعمة.

"مجموع الرسائل" (٢/٧٥٦-٧٥٧)

٣٧- قوله-يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم-: «**عجلت منيته، قلَّت بواكيه، قلَّ تراثه**» يعني أنَّه يعجل له الموت عَلَى هذه الصفة، وهي أن يكون من يبكي عليه قليلًا، وذلك لقلة عياله كما سبق، وأن يكون تراثه قليلًا، ويعني بتراثه الَّذِي يخلفه من الدُّنْيَا، وبذلك فسَّره الإمام أحمد وغيره.

وهذا الكلام يحتمل أن يكون إخبارًا عن حال هذا المؤمن، ويحتمل أن يكون دعاء له من النبي ﷺ، فاقتضى هذا الكلام أن المؤمن إذا كان عَلَى حالةٍ حسنة من حسن عبادةٍ وخمولٍ وقناعةٍ باليسير، فإنَّه يغبط بتعجيل موته عَلَى هذه الحالة، خشية أن يفتن في دينه ويتغير عما عليه.

ولهذا المعنى شُرع تمني الموت وطلبه، خشية الفتنة في الدين.

وفي المسند مرفوعًا «**لا يتمنين الموت إلا من وثق بعمله**». فمن كان عَلَى حالةٍ حسنةٍ في دينه فإنَّه يغبط بموته قبل تغير حاله.

كان أبو الدرداء إذا مات الرجل عَلَى الحالة الصالحة قال: هنيئًا لك، يا ليتني مكانك، فقالت له أم الدرداء في ذلك فَقَالَ: هل تعلمين يا حمقاء، أن الرجل يصبح مؤمنًا ويمسي منافقًا، يسلب إيمانه وهو لا يشعر، فأنا لهذا الميت أغبط مني لهذا بالبقاء والصلاة والصوم.

وقيل: ما تحب لمن تحب؟ قال: الموت. قِيلَ لَهُ: فإن لم يمت؟ قال: قلة المال والولد.

وكان ابن مسعود يتمنى الموت، فقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: لو أني أعلم أني أبقى عَلَى ما أنا عليه لتمنيت البقاء عشرين سنة.

ورأى أبو هريرة شبابًا يتعبدون فَقَالَ: ليت الموت ذهب بهؤلاء.

"مجموع الرسائل" (٢/٧٦١-٧٦٢)

٣٨- يا هذا، اعبد الله لمراده منك لا لمرادك منه، فمن عبده لمراده منه فهو ممن يعبد الله عَلَى حرف، إن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب عَلَى وجهه خسر الدُّنْيَا والآخرة، ومتى قويت المعرفة والمحبة لم يُرد صاحبها إلا ما يريده مولاه.

وفي بعض الكتب السالفة: من أَحَبّ الله لم يكن في شيءٌ عنده آثر من رضاه، ومن أحبَّ الدُّنْيَا لم يكن شيء عنده آثر من هوى نفسه.

"مجموع الرسائل" (٣/٦٢)

٣٩- النوع الثاني من الحفظ: وهو أشرفها وأفضلها، حفظ الله تعالى لعبده في دينه، فيحفظ عليه دينه وإيمانه في حياته من الشبهات المردية والبدع المضلة، والشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه عَلَى الإسلام.

وكان عمر رضي الله عنه يقول في خطبته: اللهم اعصمنا بحفظك وثبتنا عَلَى أمرك.

ودعا رجل لبعض السَّلف بأن يحفظه الله فَقَالَ: يا أخي، لا تسأل عن حفظه، ولكن قل يحفظ الإيمان. يعني: أن المهم هو الدعاء بحفظ الدين، فإن الحفظ الدنيوي قد يشترك فيه البر والفاجر، فالله يحفظ عَلَى المؤمن دينه ويحول بينه وبين ما يفسده عليه بأسباب قد لا يشعر العبد ببعضها وقد يكون يكرهه.

وهذا كما حفظ يوسف-عليه السلام- قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف:٢٤] فمن أخلص لله خلصه الله من السوء والفحشاء وعصمه منها من حيث لا يشعر، وحال بينه وبين أسباب المعاصي المهلكة.

كما رأى معروف الكرخي شبابًا يتهافتون في الخروج إِلَى القتال في فتنة، فَقَالَ: اللهم احفظهم، فقِيلَ لَهُ: تدعو لهؤلاء؟ فَقَالَ: إن حفظهم لم يخرجوا إِلَى القتال.

"مجموع الرسائل" (١٠٦/٣)

٤٠- الباب الثالث: (فيما ورد في حفظ الشام من الفتن وأنها معقل المسلمين في ذلك الزمن).

قد تقدم في الباب الأول حديث ابن عمر، وبهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده في المعنى.

وفي الباب الثاني حديث «أن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام».

وفي رواية خرجها الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ قال: «رأيت في المنام أخذوا عَمُودَ الْكتَاب فَعَمَدُوا بِهِ إِلَى السماء؛ فَإِذَا وَقَعَتِ الْفِتَنَةُ فَالأَمْرُ بِالشَّامِ».

وفي مسند الإمام أحمد عن ابن حوالة قال: قَالَ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ: «يَا ابْنَ حَوَالَةَ، كَيْفَ تَصْنَعُ فِي فِتْنَةٍ تَثُورُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ كَأَنَّهَا صَيَاصِي بَقَرٍ؟» قُلْتُ: أَصْنَعُ مَاذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «عَلَيْكَ بِالشَّامِ».

وروى ثور بن يزيد، عن حفص بن بلال بن ســـعيد، عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: «**إذا وقعت الفتن فهاجروا إِلَى الشام؛ فإنها من الله بمنظر، وهي أرض المحشر**» خرّجه أبو القاسم الحافظ وهو مرسل.

وروى قطن بن وهب، عن مولاة لعبد الله بن عمر أنها أرادت الجلاء في الفتنة واشتد عليها الزمان فاستأمرت عبد الله بن عمر، فَقَالَ: أين؟ قالت: العراق، قال: فلا إِلَى الشام، إِلَى المحشر.

وروى نعيم بن حماد، عن أبي ربيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «**ستكون فتنة تشمل الناس كلهم، لا يسلم منهم إلا الجند الغربي**».

وسنذكر فيما بعد أن الشام وما والاها مكان أهل المدينة يسمونها الغرب.

وقد سبق حديث عبد الله بن حوالة عن النبي ﷺ أن الله تكفل لي بالشام وأهله.

وكان أبو إدريس الخولاني إذا حدث به قال: ومن تكفل الله به فلا ضيعة عليه.

ورُوي عن عبد الله بن حوالة أنَّه كان إذا حدث به قال مثل ذلك أيضًا.

وبقية هذا الباب سيأتي -إن شاء الله تعالى- في الباب الأخير في ذكر دمشق، فإنَّه ورد أنها معقل المسلمين من الملاحم، وأن من سكنها نجا وسنذكر فيه إن شاء الله حديث معقل المسلمين من الروم دمشق، ومن الدجال بيت المقدس، ومن يأجوج ومأجوج الطور، وهذه الأماكن الثلاثة كلها من أرض الشام.

"مجموع الرسائل" (٣/١٩٢-١٩٣-١٩٤)

٤١- وإنَّما قال-يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم-: من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة. والله أعلم؛ لأنّ محبة لقاء الله وهو محبة الموت تصدر غالبًا إما من ضراء وهي ضراء الدُّنْيَا، وقد نهى عن تمني الموت حينئذ، وإما عن فتنة مضلة، وهي خشية الفتنة في الدين، وهو غير منهي عنه في هذه الحال.

"مجموع الرسائل" (٣/٣٥٢)

٤٢- وذلك لأنّ الإيمان والعمل الصالح في الدُّنْيَا هو الصراط المستقيم في الدُّنْيَا الَّذِي أمر الله العباد بسلوكه والاستقامة عليه، وأمرهم بسؤال الهداية إِلَيْهِ، فمن استقام سيره عَلَى هذا

المستقيم في الدُّنْيَا ظاهرًا وباطنًا، استقام مشيه عَلَى ذلك الصراط المنصوب عَلَى متن جهنم، ومن لم يستقم سيره عَلَى هذا الصراط المستقيم في الدُّنْيَا بل انحرف عنه إما إِلَى فتنة الشبهات أو إِلَى فتنة الشهوات، كان اختطاف الكلاليب له عَلَى متن جهنم بحسب اختطاف الشبهات أو الشهوات له عن هذا الصراط المستقيم، كما في حديث أبي هريرة: «**إنها تخطف الناس بأعمالهم**».

"مجموع الرسائل" (٤/٣٤٧)

٤٣- وأما المنتسبون إِلَى الكتاب المحكم، والشريعة المؤيدة، والدين الحق، فكثير منهم من أهل النار أيضًا، وهم المنافقون الذين هم في الدرك الأسفل من النار، وأما المنتسبون إِلَيْه ظاهرًا وباطنًا، فكثير منهم فتن بالشبهات، وهم أهل البدع والضلال.

وقد وردت الأحاديث بأن هذه الأمة ستفترق عَلَى بضع وسبعين فرقة، كلها في النار إلاَّ فرقة واحدة.

وكثير منهم أيضًا فتن بالشهوات المحرمة المتوعد عليها بالنار -وإن لم يقتض ذلك الخلود فيها- فلم ينج من الوعيد بالنار، ويستحق الوعد المطلق بالجنة من هذه الأمة، إلاَّ فرقة واحدة، وهي من كان عَلَى ما كان عليه النبيّ ﷺ وأصحابه ظاهرًا وباطنًا، وسلم من فتنة الشهوات والشبهات، وهؤلاء قليل جدًّا، لا سيما في الأزمان المتأخرة والقرآن يدل عَلَى أن أكثر الناس هم أهل النار، وهم الذين اتبعوا الشيطان، كما قَالَ تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[سبأ:٢٠].

وقال تعالى: ﴿**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[ص:٨٥].

"مجموع الرسائل" (٤/٣٧٢)

٤٤- وفي حديث يونس بن خباب، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ أنه ذكر سؤال المؤمن في قبره وإن الملك ينتهره، قال: «**وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن**» فذكر قوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾[إبراهيم:٢٧] أخرجه الإمام أحمد.

وكذا رواه جرير عن الأعمش عن المنهال وفي حديثه: «**إن المؤمن يقول ذلك ثلاث مرات ثم ينتهرانه انتهاره شديدة وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن**».

ورواه أبو عوانة، عن الأعمش وفي حديثه: «**ويأتيه ملكان شديدا الانتهار**».

وذلك في حق الكافر والمؤمن.

وقد روى عن مجاهد: أن الموتى كانوا يفتنون في قبورهم سبعا فكانوا يستحبون أن يطعم عنهم تلك الأيام.

وعن عبيد بن عمير قال: المؤمن يفتن سبعا والمنافق أربعين صباحا.

"مجموع الرسائل" (٥/٤٤)

٤٥- وخرّج الإمام أحمد من حديث عمرو بن العاص، وأبي الدّرداء. وخرّج الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النّبيّ ﷺ، قال: «**رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي، فأتبعته بصري، فإذا هو عمود ساطع عمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام**».

وفي المسند والترمذي وغيرهما، عن النّبيّ ﷺ، قال: «**ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم**» يعني الشّام.

وبالشام ينزل عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزّمان، وهو المبشّر بمحمّد ﷺ، فيقرّر عند نزوله دين محمّد ﷺ، ويحكم به، ولا يقبل من أحد غير دينه، فيكسر الصّليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويصلّي خلف إمام المسلمين ويقول: إنّ هذه الأمة أئمّة بعضهم لبعض، إشارة إلى أنّه متّبع لدينهم غير ناسخ له.

والشّام هي في آخر الزّمان أرض المحشر والمنشر، فيحشر النّاس إليها قبل القيامة من أقطار الأرض، فيهاجر خيار أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم، وهي أرض الشّام طوعا. كما تقدّم أنّ خيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم.

وقال ﷺ: «**عليكم بالشّام؛ فإنّها خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده**». خرّجه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن حبّان، والحاكم في صحيحيهما. وقال أبو أمامة: لا تقوم السّاعة حتّى ينتقل خيار أهل العراق إلى الشام، وشرار أهل الشام إلى العراق. خرّجه الإمام أحمد

"لطائف المعارف" (١٥٩-١٦٠)

٤٦- وفي إحياء الوقت المغفول عنه بالطّاعة فوائد:

منها: أنّه أشقّ على النّفوس؛ وأفضل الأعمال أشقّها على النّفوس، وسبب ذلك أنّ النّفوس تتأسّى بما تشاهده من أحوال أبناء الجنس، فإذا كثرت يقظة النّاس وطاعاتهم كثر أهل الطّاعة؛ لكثرة المقتدين بهم، فسهلت الطّاعات. وإذا كثرت الغفلات وأهلها تأسّى بهم عموم النّاس، فيشقّ على نفوس المتيقظين طاعاتهم؛ لقلّة من يقتدون بهم فيها.

ولهذا المعنى قال النبيّ ﷺ: «**للعامل منهم أجر خمسين منكم، إنّكم تجدون على الخير أعوانا ولا يجدون**». وقال صلى الله عليه وسلم: «**بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء**». وفي رواية: «قيل: ومن الغرباء؟ قال: «**الذين يصلحون إذا فسد النّاس**».

وفي صحيح مسلم من حديث معقل بن يسار، عن النبي ﷺ، قال: «**العبادة في الهرج كالهجرة إليّ**». وخرّجه الإمام أحمد، ولفظه: «**العبادة في الفتنة كالهجرة إليّ**».

وسبب ذلك أنّ الناس في زمن الفتن يتبعون أهواءهم ولا يرجعون إلى دين، فيكون حالهم شبيها بحال الجاهلية، فإذا انفرد من بينهم من يتمسّك بدينه ويعبد ربّه ويتّبع مراضيه، ويجتنب مساخطه، كان بمنزلة من هاجر من بين أهل الجاهلية إلى رسول الله ﷺ مؤمنًا به، متّبعا لأوامره، مجتنبًا لنواهيه.

"لطائف المعارف" (٢٣٧-٢٣٨)

٤٧- فإبليس عدوّ الله يسعى جهده في إطفاء نور الله وتوحيده، ويغري بذلك أولياءه من الكفّار والمنافقين. فلمّا عجز عن ذلك بنصر الله نبيّه وإظهار دينه على الدّين كلّه، رضي بإلقاء الفتن بين المسلمين، واجترى منهم بمحقّرات الذنوب حيث عجز عن ردّهم عن دينهم؛ كما قال النبي ﷺ: «**إنّ الشيطان قد أيس أن يعبده المصلّون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**». خرّجه مسلم من حديث جابر.

وخرّج الإمام أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه من حديث عمرو بن الأحوص، قال: سمعت النبي ﷺ يقول في حجة الوداع: «**ألا إنّ الشّيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبدا، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم، فيرضى بها**».

"لطائف المعارف" (٣٢١)

٤٨- واختلف السالكون: أيما أفضل؛ من تمنّى الموت شوقا إلى لقاء الله، أو من تمنى الحياة رغبة في طاعة الله، أو من فوّض الأمر إلى الله ورضي باختياره له ولم يختر لنفسه شيئًا.

واستدلّ طائفة من الصحابة على تفضيل الموت على الحياة بقول الله عز وجل: ﴿**وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ**﴾[آل عمران:١٩٨].

ولكن الأحاديث الصحيحة تدلّ على أنّ عمر المؤمن كلما طال ازداد بذلك ما له عند الله من الخير، فلا ينبغي له أن يتمنّى انقطاع ذلك، اللهم إلا أن يخشى الفتنة على دينه؛ فإنه إذا خشي الفتنة على دينه، فقد خشي أن يفوته ما عند الله من الخير ويتبدّل ذلك بالشر، عياذًا بالله من ذلك، والموت خير من الحياة على هذه الحال.

"لطائف المعارف" (٥٢١-٥٢٢)

٤٩- كان النبي ﷺ يتخوّف على أمّته من فتح الدنيا عليهم، فيخاف عليهم الافتتان بها. ففي الصحيحين عن عمرو بن عوف أنّ النبي ﷺ قال للأنصار لما جاءه مال البحرين: «**أبشروا وأمّلوا ما يسرّكم، فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدّنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم؛ فتنافسوها كما تنافسوها؛ فتهلككم كما أهلكتهم**».

وكان آخر خطبة خطبها على المنبر حذّر فيها من زهرة الدنيا، ففي الصحيحين عن عقبة بن عامر أنّ النبي ﷺ صعد المنبر، فقال: «**إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها، فتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم**» قال عقبة: فكان آخر ما رأيت رسول الله ﷺ على المنبر.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أنّ النبيّ ﷺ، قال: «**إذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم، أيّ قوم أنتم؟**» فقال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله عز وجل. فقال رسول الله ﷺ: «**أو غير ذلك، تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون**».

وفي المسند عن عمر، عن النبي ﷺ، قال: «**لا تفتح الدنيا على أحد إلاّ ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة**» قال عمر: وأنا أشفق من ذلك.

وفيه أيضا عن أبي ذرّ، أنّ أعرابيّا قال: يا رسول الله! أكلتنا الضّبع -يعني السّنة والجدب- فقال النبي ﷺ: «**غير ذلك أخوف منّي عليكم حين تصبّ عليكم الدنيا صبّا، فليت أمتي لا يلبسون الذّهب**». وفي رواية: «**الديباج**».

وفيه أيضا: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «**ما أخشى عليكم الفقر، ولكنّي أخشى عليكم التكاثر**».

ويروى من حديث عوف بن مالك وأبي الدّرداء، عن النبي ﷺ، قال: «**آلفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده، لتصبّنّ عليكم الدنيا صبّا حتى لا يزيغ قلب أحدكم إن أزاغه إلاّ هي**». وفي رواية عوف: «**فإنّ الله فاتح عليكم فارس والروم**». وفي المعنى أحاديث أخر.

وفي الترمذي أنّه ﷺ قال: «**لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المال**» فقوله ﷺ في حديث أبي سعيد: «**إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض**»، ثم فسّره بزهرة الدنيا؛ ومراده: ما يفتح على أمّته منها من ملك فارس والروم وغيرهم من الكفار الذين ورثت هذه الأمة ديارهم وأموالهم وأراضيهم التي تخرج منها زروعهم وثمارهم وأنهارهم ومعادنهم، وغير ذلك مما يخرج من بركات الأرض.

"لطائف المعارف" (٥٣١-٥٣٢)

٥٠- وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إنّ الدّنيا خضرة حلوة، وإنّ الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون؛ فاتّقوا الدنيا، واتقوا النّساء؛ فإنّ أوّل فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**».

واستخلافهم فيها هو ما أورثهم الله منها مما كان في أيدي الأمم من قبلهم كفارس والروم، وحذّرهم من فتنة الدنيا، وفتنة النّساء خصوصا؛ فإنّ النّساء أوّل ما ذكره الله تعالى من شهوات الدنيا ومتاعها في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[آل عمران:١٤].

"لطائف المعارف" (٥٣٤)

٥١- قَالَ ابْنُ الجَوْزِيّ فِي (المقْتَبِس): سَمِعْتُ الوَزِيْرَ -يقصد ابن هبيرة- يَقُوْلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[الممتحنة:٥] قَالَ المعْنَى: لَا تَبْتَلِيْنَا بِأَمْرٍ يُوْجِبُ افْتِتَانَ الكُفَّارِ بِنَا، فَإِنَّهُ إِذَا خُذِلَ المتَّقِي، ونُصِرَ العَاصِي، وَفُتِنَ الكَافِرَ، وَقَالَ: لَوْ كَانَ مَذْهَبُ هَذَا صَحِيْحًا مَا غُلِبَ.

"ذيل الطبقات" (١٥١/٢)

٥٢- عُبَيْدُ الله بنُ مُحَمَّد بنِ الحُسَيْنِ الفَرَّاءِ، أَبُو القَاسِمِ بنِ القَاضِي أَبِي يَعْلَى. لما وَقَعَتْ فِتْنَةُ ابنِ القُشَيْرِيّ: خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ، فَتُوُفِّيَ فِي مُضِيِّهِ إِلَيْهَا بِمَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِ(مَعْدِنِ النَّقِرَةِ) أَوَاخِرَ ذِيْ القَعْدَةِ سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتِّيْنَ وَأَرْبَعمَائَةَ، وَلَهُ سِتٌّ وَعِشْرُوْنَ سَنَةً وَثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَنَيِّفٌ وَعُشْرُوْنَ يَوْمًا تَقْرِيْبًا. رحمه الله وَعَوَّضَهُ الجَنَّةِ.

"ذيل الطبقات" (٢٤/١)

المراجع

١- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف لابن رجب- تحقيق طارق بن عوض الله.

٢- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم - ت كوشك.

٣- فتح الباري في شرح صحيح البخاري - لابن رجب – تحقيق أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد.

٤- مجموع رسائل ابن رجب - ت الحلواني.

٥- الذيل على طبقات الحنابلة – تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن سليمان العثيمين.